

فقه الاحتساب على غير المسلمين

د . عبد الله بن إبراهيم بن علي الطريقي

عضو هيئة التدريس

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقِسْمِهِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن من طبيعة الحياة البشرية الاجتماع ، ومن طبيعة البشر التفاوت والاختلاف في كل شيء ، ولا سيما في مجال الدين والخلق ، كما قال سبحانه : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ [يونس : ١٩] (١) .

وكل مجتمع لا يكاد يخلو من مؤمن وكافر ، وتقي وفاجر ، على تفاوت بين المجتمعات .

ومن هنا كان على المسلم أن يتفقه في أحكام التعامل مع تلك الفئات كلها ، وأن تكون لديه المعايير الثابتة التي يزن بها التصرفات بأنواعها ، وبها يحب ويبغض ، ويوالي ويعادي .

(١) وانظر في تفسير الآية والآيات المشابهة لها تفسير الطبري ٤/ ٢٧٥ فما بعدها ، تحقيق محمود شاكر .

ولعل من أبرز الفئات تلك : الكفار . لما لها من أحكام خاصة ومختلفة عن أحكام المسلمين .

ولذلك نجد القرآن العظيم زاخراً وحاشداً بالآيات التي تفصل العلاقات والمعاملات معهم ، ولاسيما في المجال الفكري والديني .

والتأمل فيه يلحظ أن الموقف منهم جاء على مرحلتين :

المرحلة الأولى : العهد المكي ، وجملة الموقف منهم يتلخص في :

أ- المفاصلة الشعورية أو تنافر القلوب بين المؤمنين والكافرين .

ب- الهجر الجميل ، أو المقاطعة للكفار .

كما في قوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ [المزمل : ١٠] .

ج- أمر المؤمنين بالصبر على الأذى .

كما في الآية السابقة ، وكما في قوله تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ [النحل : ١٢٧] .

د- الأمر بالعفو والصفح .

كما في قوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ [الزخرف : ٨٩] .

هـ- الأمر بكف اليد وعدم القتال .

كما في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا

الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل جديد

قريب ﴿[النساء: ٧٧]﴾^(١) الآية .

و- الاستمرار في الدعوة والندارة . كما في قوله : ﴿فاصدع بما تؤمر
وأعرض عن المشركين﴾ [الحجر: ٩٤] .

المرحلة الثانية : العهد المدني .

ويتلخص الموقف في :

أ- تمييز المسلمين واستقلالهم في إقليم، وإعلان وحدتهم . ولذلك
تكاملت التشريعات والأحكام العملية مع قصر هذا العهد .

ب- المواجهة مع الكفار، بالقوة البيانية، والقوة الاجتماعية، والقوة
المادية .

ج- تشريع الجهاد .

وبه تحددت العلاقة مع الكفار على اختلافهم ، هذا مع أن الجهاد نفسه
جاء تشريعه على مراتب كما يقول ابن القيم^(٢) : فقد أذن الله بالقتال بعد
الهجرة لمن يقاتل فقط . ثم أمر بقتال المشركين حتى يكون الدين لله ، ثم
أمر بالبراءة من المشركين ونبذ عهودهم المطلقة .

فاستقر أمر الكفار مع النبي ﷺ بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام :
محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة .

د- منع موالاة المؤمنين للكافرين مطلقاً .

وفي هذا البحث سيرد آيات كثيرة منها .

(١) ويراجع في تفسير الآية : تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٨ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ١٥٨ .

●● فقه الاحتساب ●●

ذلك بإجمال شديد الموقف القرآني من الكفار . ولا أظن أن الموقف المكي قد نسخ ، بل إنه باق تطبق عليه الحالات المشابهة ، كالمسلم الذي يعيش بين الكفار .

وكذا إذا كان المسلمون في حالة ضعف وهوان - ولا استبعد أن يكون وضع المسلمين الراهن كذلك في معظم الأقطار - فلهم أن يتخذوا الموقف نفسه عند الاضطرار .

أما إذا كانوا أعزة وجب عليهم اتخاذ الموقف المدني .

ولقد تصورت أثناء كتابتي لهذا البحث هذا الوضع الأعز أو وضعاً فيه عزة^(١) ، فإنطلقت منه في تقرير الموقف من الكفار ، وهو موقف يتخذ طابعي : القوة والتسامح في آن واحد .

وهو بلا شك الموقف الذي اتخذه المسلمون في عصور العزة والقوة منذ الهجرة النبوية ، ومروراً بعهد الخلفاء الراشدين ، وانتهاء بمن نهج منهجهم كما في عهد عمر بن عبد العزيز وغيره .

وهنا تبدو أهمية الموضوع (فقه التعامل مع غير المسلم) وضرورة عرضه ودراسته في جانبي الفكر والدعوة ؛ وعلى وجه الخصوص : ما يتعلق بالاحتساب على الكفار والمعاهدين في دار الإسلام ، فإنه موضوع ذو أهمية خاصة ؛ ولا سيما أنك لا تكاد تجد فيه مؤلفات مستقلة^(٢) .

(١) وهذه البلاد الكريمة - المملكة العربية السعودية - لا تفتقد المقومات الرئيسة لهذا الوضع - فلا جرم أن ينطلق ذوو أمرها وعلمائها ودعاتها من الموقف المدني ولو في جملته .

(٢) للأخ الشيخ سعود بن إبراهيم الطريقي بحث بعنوان (الاحتساب على غير المسلمين في دار الإسلام) وهو بحث مكمل لنيل درجة الماجستير مقدم إلى كلية الدعوة والإعلام سنة ١٤٠٦ هـ، جديد مطبوع على الآلة الكاتبة يمكن مراجعته لمزيد الفائدة .



هذا مع الاعتراف بما ينطوي عليه الموضوع من صعوبة في بعض قضاياها . غير أن مما شجعني على الكتابة فيه أخوة فضلاء في الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هم بدورهم يواجهون تلك الصعوبات والعقبات .

وإنني إذ أشكر لهم حسن ظنهم أدعو لهم ولكافة زملائهم بالتوفيق والتسديد ، فإنهم على ثغرة عظيمة ، وأي ثغرة !

وإذا كان من الافتراض توجيه الخطاب في هذه الصفحات إلى عموم المسلمين في أي مكان ، وهو كذلك بالفعل ، إلا أن بلداً كهذه البلاد - المملكة العربية السعودية - ينبغي أن يكون لها مزيد اختصاص ، لأمر ثلاثة رئيسة :

أحدها : أنها جزء من جزيرة العرب - معدن العروبة والإسلام . حيث تشكل الجزء الأكبر منها كما هو معروف . وحسبنا وجود المقدسات الطاهرة فيها .

الثاني : أن القيادة في هذه البلاد رعاها الله ترفع راية الإسلام ، وتفخر بالانتماء إليه .

الثالث : أن هذه الدولة تنفرد بوجود رئاسة مسؤولة عن الاحساب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعاملتها لغير المسلمين أنموذج يحتذى بين البلاد الإسلامية ، سواء الجانب النظري التنظيمي ، أو الجانب العملي .

وعلى الرغم من وضع الضوابط النظامية المتينة في دخولهم هذه البلاد ، إلا أن أعدادهم مازالت باطراد ، نظراً لما تعيشه البلاد من نهضة



حضارية شاملة .

ومن هنا كان لابد من الفقه بطبيعة التعامل مع هؤلاء وأحكامه، كي تتضافر الجهود - الرسمية والفردية - في الاستفادة من مثل هؤلاء بما لا يضر بمصالحنا ومبادئنا وقيمنا، ثم محاولة درء ما يحصل منهم - أو يتوقع حصوله - من مفاسد وتجاوزات ومخالفات .

وأخيراً أختتم بما ختم به الفيروز آبادي مقدمة قاموسه «الله أسأل أن يثبني بهذا جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، ضارعاً إلى من ينظر من عالم في عملي أن يستر عثاري وزللي، ويسد بسداد فضله خللي، ويصلح ما طغى به القلم، وزاغ عنه البصر، وقصر عنه الفهم، وغفل عنه الخاطر . فالإنسان محل النسيان، وإن أول ناس أول الناس، وعلى الله التكلان» .

المؤلف

الخاتمة

قبل توديع القارئ الكريم، هنا وقفتان جديرتان بالتدوين :

الأولى : مع رجل الحسبة - سدد الله خطاه وبارك في جهوده - لأذكره بأمور، أحسبها مهمة ومفيدة، مع رجائي أن يلقي سمعه وهو شهيد .

١ - أنك رجل دعوة، يبلغ الحق إلى من يجهله أو يتجاهله . وهذا يتطلب منك فقهاً في معرفة هذا الحق، وفقهاً في معرفة النفوس .

٢ - أنك رجل إصلاح وتقويم، تصلح ما فسد من حال الأفراد والمجتمع، وتقوم الاعوجاج القائم فيهما، وهذا يتطلب فقهاً تربوياً .

٣ - أنك رجل تغيير واحتساب على المنكرات والمخالفات الظاهرة . وهذا يتطلب : فقهاً في معرفة المنكر والمخالفة، وفقهاً في كيفية التغيير . ثم شجاعة وحزماً في مواجهة ذلك .

وبهذه الأمور الثلاثة : الدعوة، والإصلاح، والتغيير تتكامل مهمتك، وتتضح رسالتك .

٤ - وفي علاقتك بالكافر ينبغي أن تقوم شخصيتك على عنصرين معاً : التسامح، والقوة .

وهما وإن كانا في ظاهرهما التناقض، لكنهما عند التدقيق ليسا كذلك .

●● فقه الاحتساب ●● (١٢٦)

فإن شخصية المسلم تقوم على أخلاقيات متمازجة : كالحلم والأناة، والقوة والشجاعة، والصبر، والعفو، والرحمة وغير ذلك، وليس بينها تناقض، بل بعضها يكمل بعضاً .

٥ - ومتى استحضرت مقاصد الدعوة في معاملتك للكافر، فإنه يلين معك، بل يتفاعل، وربما كان من آثار ذلك الاقتناع، ثم الرجوع إلى الحق، وبذلك تنال خيراً هو أعظم لك من حمر النعم .

٦ - والمطلوب منك عند الاحتساب ممارسة ما خولته من صلاحيات، وأما ما كان خارجاً عن ذلك فهو غير مستطاع بالنسبة لك، وأنت معذور فيه .

ولا يغيب عن بالك قاعدة الشريعة العامة ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ .

٧ - وبإمكانك رفع القضية المشككة إلى من يعنيه الأمر، ولست مسؤولاً عما يفعل .

٨ - على أنه مهما وضعت الضوابط والقيود على يدك، فإن الكلمة الطيبة لا قيد عليها البتة، وهي أمضى سلاحاً وأقوى تأثيراً من غيرها أياً كان .

٩ - وأخيراً فإنني أتمنى أن تتأمل في هذه الورقات التي أحسب أن فيها خلاصة ما تحتاج إليه في معاملتك للكافر وأسلوب التعايش معه .

١٠ - وآخر أسأل الله لك الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد والصبر على اللأواء، والتسديد في الخطوات، إنه سميع مجيب .

الوقفة الثانية : مع كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، سواء أكان راعياً أم مرعياً ، وسواء أكان عالماً أم متعلماً أم عامياً .

لأهمس في أذنه ، وأضع أمام بصره هذه الحقائق .

١ - أن التعامل مع الكافر لا يتم وفق الميول النفسية ، أو المصالح المادية الصرفة ، بل بحسب القواعد الشرعية ، والآداب المرعية .

٢ - أن هذا التعامل لا بد أن يكون عادلاً ووسطاً ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، أي لا تساهل فيه ولا تشدد .

٣ - أن التشدد يعكس صورة قائمة عن الإسلام ، وأنه لا يعترف للإنسان بكرامة ، ولا بحقوق ، وأنه دين عنف وإرهاب . الأمر الذي يعرض المسلمين للضرر ، كما يباعد بين الكفار ودين الإسلام .

٤ - أن التساهل يجر مصائب على الأمة وويلات لا تحمد عقباه ، ويعرض مصالحها للخطر .

نعم قد يبدأ هذا التساهل بصور فردية ، ولكنه يتفاقم شيئاً فشيئاً ، حتى يصبح ظاهرة اجتماعية ملحوظة ، وعند ذلك يتسع الخرق على الراقع .

٥ - والمتأمل في التاريخ يدرك خطورة هيمنة الكفار على المسلمين وتسلطهم عليهم ، وأنهم متى وجدوا فرصة للإضرار بالمسلمين لم يألوا جهداً ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

ومن أصدق من الله قيلاً ؟

●● فقه الاحتساب ●● (١٢٨)

وقد ذكر ابن قيم الجوزية حوادث كثيرة تشهد بصدق على تلك الحقيقة، في عهد خلفاء بني أمية وبني العباس.

كما ذكر مواقف العلماء الإيجابية الشجاعة التي تصدت لتلك الظاهرة الخطيرة^(١).

٦ - ولا شك أن الاحتساب دليل عزة الإسلام وأهله، وعدمه دليل ذلة المسلمين ولا بد.

والحمد لله الذي جعل هذه البلاد موطن عز للإسلام وأهل الإسلام، وذل للكفر وأهل الكفر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) أحكام أهل الذمة ص ٢١٤ فما بعدها . وينظر : والاستعانة بغير المسلمين للمؤلف الجديد ص ٣٨٤-٣٨٧ و٤٢٦-٤٦٠ .

قائمة
أهم
المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

| الصفحة | العنوان |
|--------|---|
| ٣ | مقدمة |
| ٩ | فصل تمهيدي |
| ٩ | المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث |
| ٩ | معنى الاحتساب |
| ١١ | معنى (غير المسلم) |
| ١٧ | المبحث الثاني: (معالم العلاقة بغير المسلمين وأساسها وأهدافها) |
| ١٧ | المطلب الأول: معالم العلاقة بغير المسلمين |
| ٢٥ | المطلب الثاني: أسس العلاقة بغير المسلمين |
| ٢٥ | الأساس الأول: الكرامة الإنسانية |
| ٢٩ | الأساس الثاني: التسامح |
| ٣٢ | الأساس الثالث: |
| ٣٩ | المطلب الثالث: أهداف التعامل مع غير المسلم |
| ٤٠ | الهدف الأول: إظهار الدين |
| ٤٠ | الهدف الثاني: إبطال الكفر وقهره |
| ٤١ | الهدف الثالث: الدعوة |
| ٤٣ | الفصل الأول: حقوق غير المسلمين في دار الإسلام وواجباتهم |
| ٤٤ | المبحث الأول: الحقوق |
| ٤٥ | أولاً: الحقوق الشخصية |

● ● فقه الاحتساب ● ● (١٤٠)

- ٤٥ - حق الأمن على النفس والمال والعرض
- ٤٥ - حق التنقل والاجتماع
- ٤٥ - حق المأوى والسكن
- ٤٧ ثانياً: الحقوق العقدية والفكرية
- ٤٧ - حق البقاء على العقيدة
- ٤٧ - حق التعلم والتعليم
- ٤٧ - حق إبداء الرأي
- ٤٨ هل تقرر المعابد في دار الإسلام؟
- ٥٢ منع المنصرين من مزاولة التنصير
- ٥٣ ثالثاً: الحقوق السياسية والوظيفية
- ١- الحقوق السياسية:
- ٥٣ - حق اختيار الحاكم
- ٥٣ - حق النصح
- ٥٥ ٢- الحقوق الوظيفية
- ٥٥ - حكم طلب الولاية
- ٥٦ رابعاً: الحقوق الاقتصادية
- ٥٦ - حق التملك
- ٥٦ - حق الكسب والعمل
- ٥٩ المبحث الثاني: الواجبات
- ٥٩ الأول: أداء الجزية بالنسبة للذمي
- ٥٩ الثاني: التزام أحكام الإسلام
- ٦٨ المقصود من الغيار

- ٧١ الفصل الثاني : ضوابط الاحتساب على غير المسلم
- ٧١ مدخل في أهمية الاحتساب
- ٧١ الأدلة عليه
- ٧٤ وقفة في واقع الدولة الحديثة
- ٧٤ تعدد الجهات المسؤولة عن الاحتساب
- ٧٧ المبحث الأول: الضوابط العامة للاحتساب
العلم بما يحتسب فيه . القدرة . مراعاة المصالح والمفاسد .
- ٨٥-٧٧ الرفق مع الحزم . ظهور المنكر وعلانيته
- ٧٨ الاحتساب فيما اختلف فيه
- ٨٢ أهمية الرفق
- ٨٧ المبحث الثاني : الضوابط الخاصة
- ٨٧ ١- قيام أصل العلاقة على البراءة
- ٨٨ ٢- ضرورة التفريق بين أهل العهد وغيرهم
- ٨٩ ٣- ضرورة التمييز بين ما هو حق للكافر وما هو واجب عليه
- ٩١ ٤- تنوع أساليب الاحتساب
- ٩١ ٥- مراعاة ظروف الأمة وأحوالها
- ٩٣ الفصل الثالث : مجالات الاحتساب على الكافر وكيفيته
- ٩٥ المبحث الأول : الجانب العقدي والفكري
- ٩٥ ١- ما لا يحتسب عليه
- ٩٦ ٢- ما يحتسب عليه
- ٩٨ كيفية الاحتساب
- ١٠١ المبحث الثاني : الشعائر الدينية

الصلوات . التراتيل

الأجراس . الصلبان . أماكن العبادة

الأعياد

١ - ما لا يحتسب عليه ١٠٢

٢ - ما يحتسب عليه ١٠٣

١٠٤ كيفية الاحساب

١٠٧ المبحث الثالث : الجانب السياسي والاقتصادي

١ - ما لا يحتسب عليه ١٠٧

١٠٧ - في جانب السياسة

١٠٨ - في جانب الاقتصاد

١٠٨ ٢ - ما يحتسب عليه

١٠٨ - في جانب السياسة

١٠٩ - في جانب الاقتصاد

١١٠ - كيفية الاحساب

المبحث الرابع : الاعتداء على المسلمين

- الاجتماع على قتال المسلمين

- الزنا بمسلمة - إصابتها باسم النكاح

- فتن المسلم عن دينه - قطع الطريق

١١٤ - إيذاء جاسوس الأعداء - المعاونة على المسلمين

١١٥ كيفية الاحساب

١١٧ المبحث الخامس : جانب الأنظمة والآداب الاجتماعية

١١٧ معنى النظام والأدب

- ١١٨ أهمية التقيد بالأنظمة
- ١٢٠ ١- ما لا يحتسب على الكافر
- ١٢١ ٢- ما يحتسب عليه
- ١٢٤ كيفية الاحتساب
- ١٢٥ الخاتمة
- ١٢٥ - وقفة مع رجل الحسبة
- ١٢٧ - وقفة مع كل مسلم
- ١٢٩ قائمة المصادر والمراجع
- ١٣٩ فهرس الموضوعات